الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ على رسوله ﷺ في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين فى الآخرة ، فإذا ما وقعتْ القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله هى هى ؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شىء علماً .

وهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم أمر فى اختيارهم ، وقد سمعوا ذلك من رسول الله ، وبوسعهم ألاَّ يقولوا ، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيِّرون منه شيئاً .

وقوله : ﴿ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : أحسنهم حُكْماً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

تكلمنا عن (يسألونك) في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]

والسؤال استفهام يعنى : طلب فَهْم يحتاج إلى جواب ، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم ، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب ، أو : من عالم لجاهل ، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه ، يقولون : بينما الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن] يقول فى آية أخرى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] فالأولى تنفى السؤال ، والثانية تُثبته ؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته .

وهؤلاء معذورون ، فليست لديهم الملكة العربية لفَهْم الأداء القرآنى ، وبيان هذا الإشكال أن السؤال يردُ فى اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه .

فالحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] أى : سؤالَ إقرار ، لا سؤالَ استفهام ، فحين ينفى السؤال ينفى سؤال العلم من جهة المتكلم ، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير .

والحدث مرة يُنفَى ، ومرة يُثبت ، لكن جهة النفى مُنفكَّة عن جهة الإثبات ، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. (١٧) ﴾ [الأنفال]

فنفى الرمى فى الأولى ، وأثبته فى الثانية ، والحدث واحد ، والمثبَت له والمنفىّ عنه واحد هو محمد ﷺ . فكيف نخرج من هذا الإشكال ؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذى جلس بجوار ولده كى يذاكر دروسه ، فأخذ الولد يذاكر ، ويُقلِّب صفحات الكتاب ، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من معلومات لم يجد عنده شيئاً ، فقال للولد : ذاكرت وما ذاكرت . ذاكرت يعنى : فعلت فعْل المذاكر ، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئاً .

فرسول الله ﷺ حينما رمى ، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله ؟ إذن : فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش ، إنما قدرة الله هى التى أوصلتْ حفنة التراب هذه وذَرَّتْها فى أعيُنِ الأعداء جميعاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الجاثية] فنفتْ عنهم العلم ، وفي آية أخرى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا[1] مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم] فأثبتتْ لهم علْماً .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] وحينما استعرضنا (يَسْأَلُونَكَ) في القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقاً بـ (قُلْ) كما في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ[2] قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] وهكذا في كل الآيات ، ما عدا قوله تعالى هنا ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه] فاقترن الفعل (قُلْ) بالفاء ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال في كُلِّ هذه الآيات سؤال عن شيء وقع بالفعل ، فكان الجواب بقُلْ . مثل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] أما ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] قال في الجواب ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه] ؛ لأنه حدَثٌ لم يقع بَعْدُ .

والحق - سبحانه وتعالى - يُخبر رسوله ﷺ أنه سيُسأل هذا

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٢٧) : « أي : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة » .

(٢) الأهلة : جمع هلال . والهلال : القمر في أول ظهوره في أول الشهر العربي . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

السؤال ، فكأن الفاء هنا دلَّتْ على شرط مُقدَّر ، بمعنى : إنْ سألوك بالفعل فقُلْ : كذا وكذا .

إذن : السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية ، أمَّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة ، وسُئلت لرسول الله قبل نزول آياتها .

وقد تأتي إجابة السؤال بدون (قُلْ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فقُلْ) لأنها تدلُّ على الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُوضِّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ .

وقد تتعجب : كيف تأتي في القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس ؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون ، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التي لم ينزل فيها حكم .

نقول : دلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه ، فالأشياء التي كانت عاداتٍ لهم في الجاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنها عبادة ، لا مجرد عادة جاهلية .

مع أن النبي ﷺ نهاهم عن السؤال فقال : « دعوني ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »(١) .

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٨) والدارقطني في سننه (٢/ ٢٨١) بلفظ « دعوني » ، وقد أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣١٣ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥) ، ومسلم في صحيحه (١٣٣٧) بلفظ « ذروني » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الله ، لا على أنه إلْف عادة كانت لهم فى الجاهلية ، إذن : هذه الأسئلة ترسيمٌ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه] تكلمنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه] فالمراد : نُفتِّتها ونذروها فى الهواء ، وأكّد النسف ، فقال ﴿ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾[طه] ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء .

فقد يتصوَّر البعض أنْ الجبال تُهَدُّ ، وتتحول إلى كُتَل صخرية كما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة ؛ لذلك أكّد على النسف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير ؛ لذلك قال فى آية أخرى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة] أى : كالصوف المندوف .

لكن ، لماذا ذكر الجبال بالذات ؟

قالوا : لأن الإنسان يرى أنه ابْنُ أغيار فى ذاته ، وابن أغيار فيما حوله ممَّا يخدمه من حيوان أو نبات ، فيرى الحيوان يموت أو يُذبَح ، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتَّت ، والإنسان نفسه يموت وينتهى .

إذن : كل ما يراه حوله بيِّن فيه التغيير والانتهاء ، إلا الجبال يراها راسية ثابتة ، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور .

لذلك يُضرب بها المثل فى الثبات ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالجبال مظهر للثبات ، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخلْق الثابت المستقر ، ماذا سيفعل الله به ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾

﴿ قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] : أرضاً مستوية مَلْســاء لا نباتَ فيها ولا بناء ، والضمير فى ﴿ فَيَذَرُهَا .. (١٠٦) ﴾ [طه] يعود على الأرض لا على الجبال ؛ لأن الجبال لا تكون قـاعاً صفصفاً[1] ، أمّا الأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية ، لا بناءَ فيها ولا جبال ، فالأرض شىءٌ والجبال فوقها شىء آخر .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ[2] وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَـوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

فالضمـير فى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت] لا يعود على الأرض ، إنما على الجبال[3] . لأن الجبال فى الحقيقة هى مخـازن القُوت ومـصدر الخـصْب للأرض ، التى هـى مصـدر القوت ، فالإنسان مـخلوق من الأرض ، واستبقاء حيـاته من الأرض ، فالنبات قوت للإنسان وللحيوان ، والنبات والحيوان قوت للإنسان .

إذن : لا بُدَّ للأرض من خُصُوبة تساعدها وتُمدّها بعناصر الغذاء ، ولو أن الخالق ـ عـز وجل ـ جعل الأرض هكذا طبـقةً واحدة بهـا المخصّـبات لانتهتْ هذه الطبقة بعد عدة سنوات ، ولأجدبتْ الأرض بعد ذلك .

---

(١) الأرض الصفصف : الملساء المستوية . وقـال الفراء : الصفصـف الـذى لا نبـات فيــه . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٩٣/٤) : « يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين » .

(٣) قال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها . وقال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . [تفسير القرطبى ٦٠٠٧/٩] .

إذن : خلق اللهُ الجبالَ لحكمة ، وجعلها مصدراً للخصب الذى يمد الأرض مَدَداً دائماً ومستمراً ما بقيتْ الحياة على الأرض ، ومن هنا تتضح لنا حكمة الخالق ـ سبحانه ـ فى أن تكون الجبال صَخْراً أصمّ ، فإذا ما تعرضت لعوامل التعرية على مَرِّ السنين تتفتتْ منها الطبقة الخارجية نتيجة لتغيُّر الظروف المناخية من حرارة وبرودة .

ثم تأتى الأمطار وتعمل فى الصخر عمل المَبْرَد ، وتُكوِّن ما يسمى بالغرْيَن[1] ، فتحمل هذا الفتات إلى الودْيان ومجارى الأنهار ، وتُوزِّعه على طبقة الأرض ، فتزيدها خصْباً تدريجياً كل عام ، وإلاَّ لو كانت الجبال هَشَّة غير متماسكةَ لانهالتْ فى عدة أعوام ، ولم تُؤَدِّ هذا الغرض . لذلك نقول : إن الجبال هى مصدر القوت ، وليست الأرض .

ألاَ ترى أن خصوبة الوادى والدلتا جاءت من طمى النيل ، والغرْين الذى يحمله الماء من أعالى أفريقيا . وهذا الغرْيَن الذى يُنحَتُ من الجبال هو الذى يُسبب الزيادة فى رقعة اليابسة ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة فى المدن المطلّة على البحر ، فبعد أن كانت على شاطئه أصبحت الآن داخل اليابسة .

وقد مثَّلْنَا سابقاً للجبل بأنه مُثلث قاعدته إلى أسفل ، والوادى مُثلث قاعدته إلى أعلى ، فكل نحْت فى الجبل زيادة فى الوادى ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ جعل هذه الظاهرة لتتناسبَ مع زيادة السكان فى الأرض .

---

(١) الغرْيَن : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

وقد حُذف العائد فى ﴿فَيَذَرُهَا .. ﴿١٠٦﴾﴾ [طه] اعتماداً على ذهن السامع ونباهته إلى أنه لا يكون إلا ذلك ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] فلم يذكر عائد الضمير (هو) لأنه إذا قيل لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإنْ لم يتقدم اسمه .

وكما فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص] والمراد : الشمس التى غابت ، ففاتتْ سليمان - عليه السلام - الصلاة ، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس[1] .

كذلك فى : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر] أى : على الأرض ولم تذكرها الآية ، كذلك هنا (فيذرها) أى الأرض .

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

أى : كأنها مُستوية على « ميزان الماء » لا ترى فيها اعوجاجاً ولا (أمْتاً) يعنى : منخفض ومرتفع ، فهى مستوية استواءً تاماً ، كما نفعل نحن فى الجدار ، ونحرص على استوائه .

لذلك نرى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع الضوء ؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب فى الجدار أو على ذرات التراب ؛ لأنها تسقط على استقامتها ، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما فى الجدار من التواءات أو نتوءات .

---

(١) ذكره السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » (١٨٦/٣) ضمن أمثلة « حذف الفاعل » فى فصل « أنواع الحذف » . وقال : « لا يجوز إلا فى فاعل المصدر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

الداعي : المنادي ، كالمؤذِّن الذي كثيراً ما دعا الناس إلى حضرة الله تعالى في الصلاة ، فمنهم مَنْ أجاب النداء ، ومنهم مَنْ تأبَّى وأعرض ، أما الداعي في الآخرة ، وهو الذي ينفخ في الصور فلن يتأبَّى عليه أحد ، ولن يمتنع عن إجابته أحد .

وقوله : ﴿ لا عِوَجَ لَهُ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] لأننا نرى داعي الدنيا حين يُنادي في جَمْع من الناس ، يتجه يميناً ويتجه يساراً ، ويدور ليُسمع في كُلِّ الاتجاهات ، فإذا لم يَصِلْ صوته إلى كل الآذان استيعاباً يستعمل مُكبِّر الصوت مثلاً ، أما الداعي في الآخرة فليس له عوج هنا أو هناك ؛ لأنه يُسمِع الجميع ، ويصل صوته إلى كل الآذان ، دون انحراف أو ميْل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] هذا الهمْسُ الذي قال عنه في الآيات السابقة : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [طه]

ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجَمْع كجمع القيامة من لَدُنْ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التي طالما قالتْ ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف ، والهَوْل عظيم ، لا يجرؤ أحد من الهَوْل على رَفْع صوته ، والجميع كُلٌّ منشغل بحاله ، مُفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدّثوا تحدّثوا سِراً ومخافتة : ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟

وكذلك نحن في أوقات الشدائد لا نستطيع الجهر بها ، كما حدث لما مات سعد زغلول(١) ـ رحمه الله ـ وكان أحمد شوقي(٢) وقتها في لبنان ، فسمع الناسَ يتخافتون ، ويهمس بعضهم إلى بعض بأن سعداً قد مات ، ولا يجرؤ أحد أن يجهر بها لِهَوْل هذا الحادث على النفوس ، فقال شوقي :

يَطأُ الآذانَ هَمْساً والشِّفَاهَا

قُلْتُ يا قَوْم اجمعُوا أحْلامكُمْ كُلُّ نَفْسٍ في وَريديْها رَدَاهَا

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) ﴾

والشفاعة تقتضي مشفوعاً له وهو الإنسان ، وشافعاً وهو الأعلى منزلةً ، ومشفوعاً عنده . والمشفوع عنده لا يسمح بالشفاعة هكذا

---

(١) هو سعد باشا بن إبراهيم زغلول ، زعيم نهضة مصر السياسية ، ولد في « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م ، دخل الأزهر سنة ١٨٧٤م . اتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني ، تولى وزارة المعارف ، فالحقانية . انتخب عام ١٩١٩م رئيساً للوفد المصري للمطالبة بالاستقلال فنفاه الإنجليز إلى مالطة . توفي عام ١٩٢٧م عن ٧٠ عاماً . (الأعلام للزركلي ٣/٨٣) .

(٢) هو : أمير الشعراء أحمد شوقي : أشهر شعراء العصر الحديث ، ولد بالقاهرة ١٨٦٨م نشأ في ظل البيت المالك بمصر ، درس الحقوق بفرنسا ، عالج أكثر فنون الشعر : مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً ، ثم تناول الأحداث السياسية ، توفي ١٩٣٢م . (الأعلام للزركلي ١/١٣٧) .

ترتجلها من نفسك ، إنما لا بُدَّ أنْ يأذنَ لك بها ، وأنْ يضعك فى مقام ومرتبة الشفاعة ، وهذا شَرْط فى الشافع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه] هذه للمشفوع له ، أن يقول قولاً يرضى الله عنه - وإنْ قصَّر فى جهة أخرى - وخَيْر ما يقوله العبد ويرضى عنه الله أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذه مَقُولة مَرْضيَّة عند الله ، وهى الأمل الذى يُتعلق به ، والبُشْرى لأهل المعاصى ؛ لأنها كفيلة أن تُدخلهم فى شفاعة النبى ﷺ .

فإذا كان لديك خَصْلة سيئة ، أو نقطة ضعف فى تاريخك تراها عقبةً فلا تيأس ، وانظر إلى زاوية أخرى فى نفسك تكون أقوى ، فاكثِرْ بها الحسنات ، لأن الحسنات يُذهِبْن السيئات .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا (١١٠) ﴾

معنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. (١١٠) ﴾ [طه] ما أمامهم ، ويعلم ما خلفهم ، أما أنت فلا تحيط به علْماً ، ولا تعرف إلا ما يُخبرك به ، إلا أن تكون هناك مقدمات تستنبط منها ، لأن ما ستره الحق فى الكون كثير ، منه ما جعل الله له مقدمات ، فمَنْ ألمَّ بهذه المقدمات يصل إليها .

ومع ذلك لا يقال له : علم غيباً . إنما اكتشف غيباً بمقدمات أعطاها له الحق سبحانه وتعالى ، كما نعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، ونذكر له المعطيات ، فيستدل بالمعطيات على المطلوب .

والكون مليء بالأشياء والظواهر التى إنْ تأملناها وبحثْناها ولم

نُعرض عنها وجدنا فيها كثيراً من الأسرار ، فبالنظر فى ظواهر الكون اكتَشفوا عصر البخار ويسَّروا الحركة على الناس ، وبالنظر فى ظواهر الكون اكتشف أرشميدس قانون الأجسام الطافية ، واكتشفوا البنسلين .. إلخ .

هذه كلها ظواهر موجودة فى كون الله ، كانت تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها ويكتشفها ؛ لذلك ينعي علينا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فلو التفتوا إليها الالتفات الحق لانتفعوا بها .

لكن هناك أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد يعطيها لمن أحبَّ من عباده ، ويُطلعهم عليها ، أو تظل فى علم الله لا يعرفها أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَنَتِ(١) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾

الوجه أشرف وأكرم شيء فى تكوين الإنسان ، وهو الذى يُعطى الشخص سمَته المميزة ؛ لذلك يحميه الإنسان ويحفظه ، ألاَ ترى لو أصاب وجهك غُبَار أو تراب أو طين مثلاً تمسحه بيدك ، لم تزدْ على أنك جعلْتَ ما فى وجهك فى يدك لماذا ؟ لأنه أشرف شيء فيك .

لذلك ، كان السجود لله تعالى فى الصلاة علامة الخضوع والخشوع والذلَّة والانكسار له عز وجل ، ورضيتَ أن تضع أشرف

---

(١) عنت : أى : ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابى وغيره . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٢٣] .
وقال ابن عباس : الركوع والسجود . وقال طلق بن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض فى السجود .

جزء فيك على الأرض وتباشر به التراب ، والإنسان لا يعنُو بوجهه إلا لِمَنْ يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يستحقُّ هذا السجود ، وأن السجود له وحده يحميه من السجود لغيره ، كما قال الشاعر :

والسُّجُودُ الذى تَجْتَويهِ مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فاسْجُدْ لواحد يكْفك السجود لسواه ، واعمل لوجه واحد يكْفك كل الأوْجُه .

وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] حمل : يعنى أخذه عبئاً ثقيلاً عليه . والظلم فى أصله أنْ تأخذَ خيراً ليس لك لتنتفع به وتزيد ما عندك ، فأنت فى الظاهر تزداد كما تظن ، إنما الحقيقة أنك تُحمِّل نفسك وِزْراً وحملاً ثقيلاً ، سوف تنوء به ، وازددْتَ إثماً لا خيراً .

والظلم مراتب ودرجات ، أدناها أنْ تأخذ ما ليس لك وإن كان حقيراً لا قيمة له ، أو تظلم غيرك بأنْ تتناوله فى عِرْضه ، ثم ترقى الظلم إلى أنْ تصلَ به إلى القمة ، وهو الشرك بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وهو عظيم ؛ لأنك أخذتَ حقاً لله تعالى ، وأعطيته لغيره .

إذن : فحاول أن تَسْلَم من هذه الآفة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

الصالحات : هى الأعمال التى تعود بالخير عليك أو على غيرك ، وأضعفُ الإيمان فى عمل الصالح أن تترك الصالح فى ذاته على صلاحه فلا تفسده ، كأن تجد بئراً يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه . فإنْ رقيت العمل الصالح فيمكنك أن تزيد من صلاحه ، فتبنى حوله جداراً يحميه أو تجعل له غطاءً .. إلخ .

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه حينما حثَّنا على العمل الصالح قال : ﴿ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. (١١٢) ﴾ [طه] ومن هنا للتبعيض ، فيكفى أنْ تفعل بعض الصالحات ؛ لأن طاقة الإنسان لا تسع كل الصالحات ولا تقوى عليها ، فحسبُك أن تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كل هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنَتْ لنا الصلاح الكامل .

كما سبق أن ذكرنا أن ليس بوسع أحد منا أن يجمعَ الكمال المحمدى فى أخلاقه ، والرسول ﷺ يقول : « الخير فىَّ - حقاً - وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

ففى كل فرد من أفراد الأمة خصلة من خصال الخير ، بحيث إذا تجمعت خصال الكمال فى الخلق أعطتنا الكمال المحمدى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (١١٢) ﴾ [طه] لأن الإيمان شرط فى قبول العمل الصالح ، فإنْ جاء العمل الصالح من غير المؤمن أخذ أجره فى الدنيا ذكْراً وشُهْرة وتخليداً لذكراه ، فقد عمل ليقال وقد قيل ، وانتهتْ المسألة .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال فى المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين » .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه] والظلم هنا غير الظلم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره ، إنما ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه] أى : ظُلْماً يقع عليه ، بألاَّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

﴿ وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه] الهَضْم يعنى النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التى ناكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموى ، فتأخذ حَيِّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعنى : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْى الظلم نَفْى للهضم ؟ نقول : لأنه مرة يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلِّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ (١) لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) ﴾

(كَذَلِكَ) أى : كالإنزال الذى أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنَّ فارق الرسالات أنهم بُعثُوا لزمان محدود ، فى مكان محدود ، وبُعثْتَ

---

(١) أى : بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . [قاله القرطبى فى تفسيره ٤٤٢٥/٦] .

للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفهم من كلمة ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١١٣) ﴾ [طه] أن المُنزَّل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عالٍ ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا ، فيقول : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض ؛ لأنه يُقنِّن للحاضر ويجهل المستقبل ، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حين ينادينا إلى منهجه العلوى يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] يعنى : اعلوا وخُذُوا منهجكم من أعلى ، لا من الأرض .

﴿ قُرْآنًا .. (١١٣) ﴾ [طه] يعنى : مقروء ، كما قال ﴿ كِتَابًا .. (١٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : مكتوب ، ليُحفظ فى الصدور وفى السطور . وقال ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (١١٣) ﴾ [طه] مع أن النبى ﷺ مُرْسَل إلى الناس كافة فى امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه ﷺ هو المباشر لهذه الأمة العربية التى ستستقبل أول دعوة له ، فلا بُدَّ أنْ تأتى المعجزة بلسانها ، كما أن معجزة القرآن ليستْ للعرب وحدهم ، إنما تحدٍّ للإنس والجن على امتداد الزمان والمكان .

كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فالقرآن تحدٍّ لكل الأجناس : الروسى ، والأمريكى ، واليابانى ، والدنيا كلها ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لماذا والجن أيضاً داخل فى مجال التحدى ؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتـقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يمدُّه ويُوحِي إليه ؛ لذلك أدخل الجن أيضاً فى هذا المجال .

وقد يقـول قائل : وكيف نتحـدَّى بالقرآن غير العـرب وهو بلسان عربى ، فهو حجة على العرب دون غيرهم ؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حـيث أسلوبه العربى وأدائه البيانى فقط ؟ لا ، فجوانب الإعجاز فى القرآن كثـيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات فى التقنين لخـير المجتمع ؟ ألم يأتِ القرآن بمنهج فى أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل والبحث ؟

ثم الكونيات التى تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبـيعى أن يأتى القـرآن عـربـياً ؛ لأنه نزل على رسـول عربى ، وفى أمة عربية ، والحق سبحانه يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ④﴾ [إبراهيم]

فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينـفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها فى شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التى لا تعرف العربيـة ، أقنعوها بالمبادىء والمناهج التى جاء بها القرآن ؛ لأنها مبادىء ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

ثم يقول تعالى ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ .. ⑪③﴾ [طه] أى : حينما ينذر القـرآن بشىء يُصـرف هذا الإنذار على أوجـه مخـتلفـة ، ويُكرِّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .

يعنى : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى فى نفس أحد المستقبلين ، فخاطبنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد فى القرآن مَا يناسبه ؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامى ، فلا بُدَّ أنْ يكون فى القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .

وفى القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتى بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :

أَنَاةٌ فَإِنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدهَا وَعِيداً

فَإِنْ لم يُغْن أغنَتْ عَزَائمهُ

وفى الأثر : « إن الله ليزع[1] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد فى سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾ [الرحمن] فهذه نعم من الله .

أما فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فما النعمة فى النار والشُّواظ ؟

النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ فى فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرَّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك

(١) الوزْع : كفُّ النفس عن هواها . ومعنى الأثر : أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى ، فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .